# الفصل الثالث عشر

## إدراك الكلى

يكتسب العقل المعرفة الأولية عن طريق الحواس ، ثم تكوين المدركات الحسية ، ثم يستطيع أن يستغنى عن المدركات الحسية الموجودة فى الخارج ، ويتذكرها عن طريق الصور العقلية . فالطفل الصغير يقدم إليه كوب اللبن أو قطعة الحلوى ويتذوقهما ويدرك شكلهما وطعمهما ، ثم تشتهى نفسه ما ارتاحت إليه ، فيطلب ذلك اللبن أو تلك الحلوى اللذين تذوقهما ، ففى ذهنه صورتهما كما جربهما ، بمعنى أنه يطلب ذلك اللبن الذى شربه ، موضوعاً فى نفس الإناء الذى رآه ، مصحوباً بنفس الحرارة التى كان عليها ، وفى المكان الذى تذوقه فيه . فالمدرك الحسى معرفة لشىء خارجى محدود جزئى خاص ، والصورة العقلية استرجاع ذلك الشىء الخارجى المحدود الخاص .

وللعقل القدرة على إدراك المعانى الكلية العامة ، التى تنطبق على كثير من الجزئيات المحدودة ، فيدرك معنى اللبن إطلاقاً ، أو الحلوى إطلاقاً ، دون أن يقصر ذلك المعنى على اللبن الذى شربه ، والذى كان موضوعاً فى إناء رآه ، والذى كان مصحوباً بحرارة معينة ، والذى تناوله فى مكان معين ، بل اللبن عامة ، كثيراً كان أم قليلا ، ساخناً أم بارداً ، فى أى مكان من الأمكنة ، وفى أى وعاء .

فالمدركات الحسية جزئية ، تحد بالأشياء ذاتها التى تمسها ولا تتعداها ، بينما

المعنى الكلى ، معنى مجرد عام ، مجرد لأنه يشتمل على صفات منتزعة عن مشخصاتها ، وعام لأنه ينطبق على أفراد كثيرين من نوعه . فالمعانى الكلية نصل إليها بالتجريد والتعميم .

التجريد :

إن ما يصل إلى الذهن من الشيء الخارجى هو عدة صفات لهذا الشيء ليس إلا ، أما الشيء نفسه فموجود فى الخارج وله حقيقة فى ذاتها لا ندركها . والمدرك الحسى عبارة عن مجموع صفات هذا الشيء التى تصل إلى الذهن . فإذا رأيت شخصاً ، فما يصل إلى ذهنك منه ، هو اللون والشكل الخارجى والحجم ، ولكن هذه الصفات لا تنفصل فهذا الشخص بصفاته كل لا يتجزأ عن المدرك الحسى . من بين هذه الصفات أن له شعراً « ذهبى اللون » فهو فى الذهن شعر لونه ذهبى . الشعر واللون لا ينفصلان فى الواقع ، لأنك لا تجد شعراً لا لون له ، بل يجب أن يكون أسود أو أبيض أو من أى لون آخر . ومن ناحية أخرى لا تجد لوناً لا يقع فى مادة من المواد ، كاللون فى قطعة الخشب أو الشعر أو القماش أو الحائط . . . ولكننا بواسطة العقل نستطيع أن نتصور اللون فقط بدون المادة الموجود فيها ، والتى يجب أن يكون موجوداً فيها ، ولا يكون فيها إلا بالفعل ؛ فإذا أدركت شجرة لون أوراقها أخضر ، فإنك تتصور — من المدرك الحسى للشجرة — اللون الأخضر فقط ، أى تستبقى فى ذهنك اللون الأخضر فقط ، بينما اللون لا ينفصل فى الواقع عن ورقة الشجرة الموجود فيها . إذاً هناك صورة مدركة حسية فى الذهن ، هى عبارة عن ورقة الشجرة مضافاً إليها اللون الأخضر ، وشكل الورقة ولونها الأخضر لا ينفصلان فى الخارج أو الحقيقة ، فأنت فى

الذهن استطعت أن تفصل اللون عن ورقة الشجرة وتستبقيه بمفرده . هذه العملية العقلية التى استطعت بها أن تفصل اللون عن ورقة الشجرة تسمى : التجريد . فالتجريد هو انتزاع صفة من صفات المدرك على حدة ، منفصلة عن باقى الصفات . فالورقة التى تقرأ فيها الآن ، ذات لون أبيض ، وشكل مستطيل ، وسمك معين ، ولكنك تستطيع أن تجرد اللون الأبيض من الورقة التى تقرأ فيها ، وأن تنتزع شكلها المستطيل ، وأن تدرك سمكها فقط . . . ونحن فى الواقع لا ندرك البياض بمفرده ، بل ندرك الورقة وقد اجتمعت فيها جميع الصفات التى ذكرناها .

وهناك فرق بين التجزىء والتحليل والتجريد . فالتجزىء هو تقسيم الشيء الواحد إلى عدة أجزاء ، مثل تجزىء الكتاب إلى مائة ورقة ، والرغيف إلى نصفين . والتحليل هو الوصول إلى عناصر الموضوع أو المواد التى يتركب منها مثل تحليل الهواء إلى أكسجين وأزوت . ولا يكون التجريد تجزيئاً ، ولكنه قد يقترب من التحليل ، ومع ذلك فبينهما فروق ، إذ ليس من الضرورى فى التجريد أن يعنى الذهن بالبحث عن جميع العناصر التى يتحلل إليها الشيء .

وهناك ثلاثة أنواع من التجريد ، فقد تجرد الكيف أو الكم أو العلاقة . فانتزاع صفة اللون من الورقة هو تجريد الكيف ، وتجريد عدد صفحات الكتاب وحجمه هو تجريد الكم ، وتصور النسبة بين الكتاب والمنضدة الموضوع فوقها هو تجريد العلاقة .

وسواء كنا نجرد صفة أم كمًّا أم علاقة ، فالعقل يبذل جهداً ، « وينزع » إلى أداء هذا العمل ، فالتجريد بداية لنزوع ، بل هو حركة عقلية . فمعنى « الجاذبية » أنها المجهود الذى نبذله لنقرب منا أو نبعد عنا شيئاً يقاوم القوة التى بها نقارب أو نباعد .

وللصفات التى ندركها أثر فينا ، فنعجب بها أو نحتقرها أو نقبل عليها أو نبتعد عنها ؛ فهذه وردة أدرك رائحتها الجميلة ، فجمال رائحتها يجعلنى أشتاق إليها وأطلبها . فصفات الأشياء تنتج فينا نوعاً من النزوع أو النشاط لكسبها .

فإذا أعجبتنى الصفة ، فإنى أركز فيها « انتباهى » لأن هذه الصفة ستكون موضع العمل منى ، وعلى ذلك فالتجريد يتطلب الانتباه أولاً .

وتتفاوت المعانى المجردة ، فبياض هذه الورقة أقل تجريداً من معنى البياض إطلاقاً ، والبياض أقل تجريداً من معنى اللون ، واللون أقل فى درجة التجريد من معنى الصفة . . . . .

## كيف نصل إلى التجريد ؟

هناك ثلاث نظريات يفسر بها التجريد ، ولكل منها وجه من أوجه النقص ، ونحن نسوقها فيما يلى : —

١ — النظرية التى تقول بأن الحواس هى آلات التجريد . فكل حاسة تختص باكتساب نوع من الصفات تمتاز به ولا تشاركها فيه غيرها ، وذلك حين تدرك المحسوسات . فالعين تدرك الألوان ، والأذن الأصوات ، والأنف الروائح ، واللسان الطعوم ، وسطح الجلد الملموسات ، فالانسان يوزع الصفات ويقسمها ، تبعاً لتقسيم الحواس الطبيعى ، فالجسم آلة خلقت للتجريد ، والحواس مضطرة إلى التجريد بفطرتها ، وإذا لم يكن الأمر كذلك لاختلطت الأشياء بعضها ببعض ، حتى لتدرك العين الروائح والطعوم والمشمومات والأصوات كما تدرك الألوان .

ولا تصلح هذه النظرية لتفسير التجريد إطلاقاً ، فالحواس تفصل صفات الكيف فقط ، وليست كل المعانى المجردة كيفيات ، فهناك معان كثيرة ليست

بصفات ، مثل معنى السببية ، والتبعية ، والجاذبية ، والعددية ، وهذه العلاقات المختلفة لا تستمد من الحواس . كذلك العين لا ترى اللون فقط ، بل ترى شكلا بمجموعه ، يحتوى على حجم ولون وسطح وشكل ، وليس من طبيعة العين انتزاع اللون فقط منفصلاً عن الشكل . فإذا صلحت الحواس لتفسير بعض أنواع التجريد الأولية ، فإنها لا تفسر لنا باقى أنواع التجريد .

٢ — النظرية الثانية هى التى تقول بأن الانتباه ، وهو المجهود العقلى الذى يبذله الإنسان حين الإدراك ، أو هو حصر الفكر فى جزء من الحقيقة الخارجية ، بينما تظل باقى الأجزاء مهملة لا يوجه إليها الملاحظ نظره ، هذا الانتباه الذى يضيق دائرة الشعور هو الذى يؤدى إلى التجريد .

والاعتراض على هذه النظرية يقع فى سببين ، الأول أننا إذا كنا نوجه الانتباه نحو فصل جزء من الحقيقة ، وتقطيعها لأنها أكبر من أن تدرك ، فليس التجزىء تجريداً ، فإذا فصلت يد الشخص عن الجسم ، فليست اليد إلا جزءاً من الجسم ، ولا تعد معنى من معانى الجسمية أو الإنسانية . والسبب الثانى أننا إذا قلنا إن الانتباه يؤدى إلى تحليل الشىء إلى عناصره الأولى ، كالنمو بالنسبة لجسم الإنسان ، فيكون الانتباه مرادفاً إذاً للتجريد ، أو تكون هناك قوة للانتباه ، وقوة أخرى للتجريد ، بينما المجهود العقلى واحد .

٣ — النظرية الثالثة أن أصل التجريد لا يكون فى المدرك الحسى فقط ، ولا فى قوة الانتباه فقط ، بل فى القدرة على الموازنة . وذلك أن العقل لا يفعل شيئاً أمام الشىء « الواحد » الواقع تحت حسه ، ولكن العقل إذا أدرك شيئاً آخر يماثل الأول ، وثالثاً يماثلهما ، فإنه يلحظ اشتراكها فى صفة واحدة ، وينتزعها

منها جميعاً ، عن طريق الموازنة بينها . والموازنة هى انتقال الانتباه من شىء إلى آخر لكشف بعض أوجه الشبه .

ولكن انتزاع الصفة المشتركة بين عدة أفراد متشابهين ، يفرض أن الشىء الذى ندركه يتكون من عدة صفات منفصلة ، وبذلك يتيسر للعقل أن يلحظ هذه الصفات ، وأن يوازن بين الأشياء فيدرك وجه الشبه فى كل منها . والواقع يخالف ذلك ، لأن إدراكنا للشىء الواحد يكون كاملاً ، بحيث تجتمع صفاته كلها دفعة واحدة ، دون أن تكون هذه الصفات منفصلة ، فنحن حين ندرك الصفة الكائنة فى شىء على أنها مماثلة لصفة أخرى فى شىء آخر وثالث ورابع ، يتجه عقلنا إلى أن هذه الصفة « عامة » فى الجميع ، فعملية التجريد لا تفهم بواسطة الحواس أو الانتباه أو الموازنة فقط ، بل لا بد من إضافة عملية التعميم إليها .

## التعميم :

المعنى الكلى[١] هو المعنى العام الذى ينطبق على أفراد كثيرين ، مثل شجرة فإنها تنطبق على آلاف الأشياء الخارجية المعروفة بهذا الإسم ، ومثل إنسان لأنه ينطبق على جميع الناس .

ولأجل أن يطبق العقل المعنى الواحد على عدة أفراد ، يجب أن يلحظ بينهم صفات مشتركة هى التى تجعله يدرج هؤلاء الأفراد تحت معنى واحد . فالمعنى الكلى يدل على صفات مشتركة أولا ، وعلى صلاحية أفراد كثيرين للاشتراك فى هذا المعنى . فمن الناحية الأولى تسمى هذه الصفات مفهوم[٢] المعنى ومن الناحية الثانية

---

(١) Concept .

(٢) Compréhension

يسمى الأفراد الذين ينطبق عليهم هذا المعنى الماصدقات[١] . وهذا هو تقسيم المناطقة للمعنى الكلى ، فله مفهوم وماصدق . فمفهوم الإنسان الحيوانية والنطق ، وماصدقات الإنسان هم جميع أفراد النوع الإنسانى .

كيف نصل إلى تكوين المعنى الكلى ؟

يحسن قبل أن نبحث فى تكوين المعنى الكلى ، أن نفرق بينه و بين الصورة المركبة[٢] التى أراد بعض علماء النفس مثل جالتون أن يوازنوا بينهما . والصورة المركبة هى صورة نحصل عليها من تأمل عدة صور مختلفة لشىء واحد ، فيخرج لنا من جماعها صورة تمثلها جميعاً ؛ مثال ذلك أن جالتون صوّر الأسكندر بعد رؤيته ست مداليات موجودة فى المتحف البريطانى تمثل الأسكندر فى أعمار مختلفة من حياته . هذه الصورة نحصل عليها بانتزاع الصفات البارزة المشتركة فى عدة مدركات حسية ، ولكنها لا تتعدى هذه المدركات الخاصة ، بحيث إذا أضيف مدرك حسى جديد اضطررنا إلى تغيير الصورة المركبة ، وتعديلها بما يوافق الشىء الجديد . فالصورة المركبة لا تنطبق إلا على العدد المحدود من المحسات المنتزعة منها .

ولكن المعنى الكلى يخالف ذلك ، فمعنى « إنسان » ينطبق على أفراد لانهاية لهم ، على أفراد الإنسان فى الماضى والحاضر والمستقبل .

نعود إلى السؤال مرة أخرى ، كيف يتكون المعنى الكلى ؟ إن معارفنا تبدأ فى الأصل بالمدركات الحسية الجزئية ، التى تترك وراءها صوراً ذهنية . فنحن نرى هذه الشجرة وتلك وتلك ، وكل واحدة منها تترك فى الذهن

---

(١) Extension

(٢) L'Image composite

صورة لها ، فكل معرفة كانت فى الأصل معرفة الجزئيات ، و بين هذه الجزئيات خلاف فى الأعراض ، فشجرة طويلة وأخرى قصيرة ، وثالثة مورقة ، ورابعة مخضرة ، وخامسة مثمرة ... فكيف نخرج من هذا التعدد إلى الوحدة ، ومن الخلاف إلى الاتفاق ؟

أجاب هاملتون عن هذا السؤال بنظريته المعروفة ، فهو يميز خمس خطوات فى تكوين المعنى الكلى : —

١ — الأولى الإدراك الحسى للأشياء الخارجية المتكثرة المتعددة .

٢ — الثانية الموازنة بين هذه الأشياء الخارجية لمعرفة الصفات العامة المشتركة بينها .

٣ — الثالثة توجيه الانتباه الذى يركز الذهن فى الصفات التى لحظ الإنسان اشتراكها ، وتجريدها من غيرها .

٤ — الرابعة التأليف بين هذه الصفات المشتركة .

٥ — الخامسة التسمية ، أى وضع اسم لهذه المجموعة المشتركة من الصفات .

وللاسم الذى يتصل بالمعنى أهمية كبيرة فى الخطوات التى تعمل على تكوينه وسنبين هذه الأهمية وقيمة اللغة فى الإدراك الكلى فيما بعد .

ويبين هاملتون هنا أننا نصل إلى التجريد بالموازنة ، وقد اتضح لنا قصور هذه العملية عن الوصول الكامل إلى التجريد . وإذا قلنا إننا ننتزع الصفات المشتركة من بين عدة مدركات حسية ، فالمعنى المنتزع لن يكون إلا « صورة مركبة » محدودة بهذه المدركات الحسية فقط ؛ فنحن فى حاجة إلى تفسير عملية التعميم بغير هذه الخطوات .

والحقيقة أن مشكلة التجريد لا تحل بمفردها ، بل هى عملية لا تنفصل عن

التعميم . فالمعانى الكلية معان مجردة ، وكل معنى مجرد هو معنى عام . و بيان ذلك أن كل معنى عام هو معنى مجرد ، لأنه لإدراك أن من خصائص المعنى الانطباق على عدد لا نهاية له من الأفراد ، يجب أن ينتزع أو يجرد هذا المعنى من المحسات التى تشمل صفات مشتركة ، والعكس لا تجريد بغير تعميم . وقد يكون عند الحيوان شىء من هذا ، ولكن بصورة محدودة عما هو موجود عند الإنسان ، فالفيل الذى يدرب على حمل الأثقال ، قد تنشأ فى ذهنه فكرة الثقل ، ولكنه لا يستطيع أن يمتد فى تطبيق هذه الفكرة على الأشياء التى لا يتصل بها ولا تهمه . بينما الإنسان عنده المقدرة على التجريد والتعميم فى آن واحد . فإذا جردتُ اللون الأبيض من هذه الورقة فقط دون أن أفكر فى أن اللون الأبيض قد يوجد فى أشياء أخرى ، فإن هذا التجريد لا يعدو الحقيقة الجزئية ، ولا يعلو كثيراً فوق الحس ، إذ أن هذه الصفة تظل متصلة بمجموعة الصفات المستمدة من ذلك الشىء .

والحقيقة أيضاً أن العقل لا يقف موقفاً سلبياً من الأشياء التى يجردها ، ولكنه يميل إلى النشاط ، ويتجه إلى أن يكون بداية لعمل . ذلك أننا نرد دائماً على مطالب الحياة ، ونحاول أن نسلك دائماً أمام المواقف المختلفة التى تقدمها لنا الظروف الخارجية ، وليس الأصل فى الإنسان أن يعمل لكسب المعرفة المجردة الخالصة . فنحن ندرك الأشياء التى نجد فيها فائدة لنا ، ولذلك كان الإدراك الحسى باعثاً إلى النزوع والميل إلى العمل . إذا طلبت من شخص أن يصف لك كوب الماء الذى كان يشرب منه ، أو السكين التى كان يستعملها فى تناول الطعام ، أو الأطباق التى كان الطعام موجوداً فيها ، فإنك تدهش لعدم مقدرته على وصفها ؛ ذلك أن الشخص لم يدرك الكوب إلا على أنه يحوى الماء ، ولم يدرك الأطباق إلا على أنها أوعية الطعام ، ولذلك يُعَرِّف الإنسان الأشياء أولاً

لفائدتها وصلاحيتها للاستعمال ، ولا يبدأ الإنسان فى تمييز الصفات المجردة الذاتية المقومة لطبيعة الشيء إلا فيما بعد . ونحن لا نقف من الطبيعة موقف المتفرج دون اهتمام ، بل ننظر إلى الطبيعة بمنظار الحاجة والمنفعة ، ونحاول دائماً أن نطبق سلوكنا ، الذى أفادنا فى موقف ، فى الظروف الأخرى المشابهة . فالجسم يسلك نفس السلوك فى الظروف المتشابهة التى قد تختلف فى بعض التفاصيل ، فالإنسان حين يرى وحشاً قد أفلت من قفصه ، ليكن هذا الوحش أسداً أو نمراً أو أى حيوان مفترس ، فإن الإنسان يتخذ وسيلة الهرب ، وفى هذا السلوك الغريزى يجرد الإنسان معنى الخطر ، وهو فى نفس الوقت يعمم هـذا المعنى ، لأن الخطر سواء أكان عن أسد أو نمر ، فهو خطر بالنسبة له . فمن هذا المثال يتضح لنا تماماً أن « فكرة الخطر » جردت وعممت فى آن واحد .

فهو تجريد وتعميم مستمدان بالطبيعة ، وسابقان على كل تفكير . ولكن الإنسان لا يقنع بما تقدمه له الطبيعة ، فهو يفكر ويتأمل ، ويشعر بفائدة هـذه المجردات الطبيعيـة ، فيحاول أن ينسج على منوالها ، مقلداً فى ذلك الطبيعة ، وأكبر عون له فى هذا التعميم ، هى الألفاظ التى اخترعها الإنسان ليثبّت فيها هذه المعانى المجردة .

## اللغة والمعنى الكلى :

اللفظ هو رمز نضعه فى الاصطلاح لمعنى من المعانى . هـذه الرموز ضرورية لوضع أساس الاستقرار فى التقدم العقلى ، وذلك لتركيز كل خطوة من سير الذهن ، حتى نستطيع أن نتقدم فى ذلك السير . فقد يغزو الجيش بقعة من الأرض وينتصر عليها وينتشر فوق أديمها ، ولكنه لا يملكها إلا حين ينشيء

فوقها الحصون ، فالألفاظ حصون الفكر . ولنضرب مثلا آخر ، فإنك تعرف دون شك أن الأنفاق التى تحفر فى أرض رملية ، لا تستقيم إلا إذا بنيت عقود من الحجر على مسافات لتمنع انهيار الرمل ، فاللغة بالنسبة إلى العقل كالعقود بالنسبة للأنفاق .

فالمعنى يظل حائراً فى الذهن ، حتى يستقر فى اللفظة المناسبة ، فيثبت ويتركز ويتحدد . واللغة ضرورية للفكر ، حتى للتفكير الشخصى ، فالإنسان بينه وبين نفسه يفكر فى أثواب من اللغة . قال صاحب البصائر النصيرية[1] : « أما إذا جرى التعليم فيه [ يعنى المنطق ] على سبيل المخاطبة والمحاورة ولم يكن ذلك إلا بألفاظ ، صارت الألفاظ أيضاً منظوراً فيها بالضرورة ، خصوصاً وفكر الإنسان قلما ينفك عن تخيل ألفاظ معها ، حتى كأن الإنسان يناجى نفسه بألفاظ متخيلة إذا أخذ فى التروى والتفكر » .

وقد نسأل أنفسنا ماهى الحاجة التى دفعت الإنسان إلى اختراع اللغة ، التى أفادتنا هذه الفائدة الكبرى فى تركيز المعانى المجردة العامة ، والجواب عن هذا يسير ، فهذه الحاجة تمتد أصولها إلى المجتمع . أما الحيوان لأنه يستغرق فى الأنانية ، ولأنه يعيش ليشبع رغبات الحس فحسب ، ولأنه يعمل لفائدته الشخصية ، فإنه يعيش لنفسه . فآكل العشب يعرف الأعشاب ويميزها ويدركها ليأكلها ، ولكنه لا يبدى ميلاً إلى نقل هذه المعرفة لغيره من أقرانه . ففكره ينعكس على جسمه ، وينعكس على شهواته التى تملى عليه طريق العمل . فالحيوان عبد لشهواته الجسمية ، ولذلك كانت هذه الأنانية البعيدة الغور مانعة من ابتكار اللغة . ولكن الإنسان لحاجته إلى نقل الفكر من شخص إلى آخر ، اضطر إلى استعمال

(١) البصائر النصيرية ص ٦

اللغة . واللغات فى أول أمرها بدأت بالأسماء والصفات دون الأفعال ، فكثير من لغات الشعوب الهمجية لا أفعال فيها .

ولأجل أن ينقل الإنسان فكره إلى غيره ، يجب أن يتخذ وجهة نظر ذلك الغير ، ولذلك فهو يلغى من تفكيره المدركات الشخصية البحتة ، و يستبقى المدركات العامة التى يفهمها هو وغيره . فإذا رأى الإنسان شجرة ذات فروع كثيرة مورقة خضراء ، و يحاول أن ينقل هذا المعنى المحسوس المتصل الصفات الكثير التفاصيل ، فإنه ينبغى أن يلغى التفاصيل الجزئيـة الخاصة من هذا الشكل ، ثم يضع فى لفظ واحد ما يمثل للجميع ؛ فاللفظ « شجرة » يدل على هذا الشكل جملة ، هذه الشجرة التى ليست بقصيرة أو طويلة ، مورقة أو جرداء ، خضراء أو يابسة ، فى حقل أو فى حديقة ، إلى اليمين أو إلى اليسار ، ثم يضيف العقـل إلى هذا المعنى أو الاسم صفة تحدد ما يطلب الإنسان من فكر ، فيقول شجرة خضراء .

---